﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 27 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

بيانُ عِلَلِ التَّخفيفِ وأسبابِه في تَزَوُّجِ الإماءِ، عَقِبَ ذكر أحكام الزَّواج مِنْهُنَّ

لَمَّا قرَّرَ ﷻ إرادتهُ لِصلاح عبادِهِ المؤمنينَ، ورغَّبَ في اتِّباعِ الهدى بِعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، عَطَفَ بالتَّذْكيرِ بِأَنَّهُ لا يَزالُ مُراعيًا رِفْقَهُ بِهذِهِ الأُمَّةِ، وإرادَتَهُ بِها اليُسْرَ دونَ العُسْرِ، كَما بَيَّنَ طَريقَةَ أَهْلِ الزَّيْغِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ في تَعامُلِهِمْ مَعَ أَحْكامِ اللّهِ، بِالتَّبْديلِ والتَّغييرِ[1]، لِنَحْذَرَ مِنْ مُشابَهَتِهِمْ في ذلِكَ، والمَقْصِدُ بِهَذِهِ الآيَةِ تَخْفيفُ اللّهِ تَعالى بِإِباحَةِ نِكاحِ الإماءِ، وكان إِخْبارُهُ عَنْ ضَعْفِ الإِنْسانِ، انطلاقا من علمه بضَعْفِ الرِّجال عَنِ الصَّبْرِ عَنِ النِّساءِ، فيسّر لهم بِإِباحَةِ ذلك[2]، فَجاءَتْ هاتانِ الآيَتانِ وما قَبْلَهُما لبيان الإرادَةِ الشَّرْعيَّة، بالتَّخْفيفِ عَلَيْنا، بالأمر بِإِباحَةِ الزّواج بالإماءِ، وفي ذلك إِشارَةٌ واضِحَةٌ إلى أَنَّ المُجْتَمَعَ الإِسْلاميَّ يخلو مِنَ الزِّنا والفاحِشَةِ[3]، ثمّ إِنَّ اللّه تَعالى ذَكَرَ أَحْكامَ النِّكاحِ بَيانًا وإِسْهابًا، وأعقبها بذكر عِلَلِها وأَحْكامها، لِيَكونَ في ذَلِكَ طُمَأْنينَةٌ لِلْقُلوبِ، وسُكونٌ لِلنُّفوسِ، فَتُقْبِلَ عَلَيْها وهِيَ عَالِمَةٌ بِأَنَّ لها في هَذِهِ الأَحْكامِ سَعادَةً في دُنْياها وأُخْراها[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: شَهِيَ الشَّيْء، وشَهاه يَشْهاهُ شَهْوةً، أَحَبَّهُ وَرَغِبَ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 05/22.
(2) ابنُ عَطِيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 02/40.
(3) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 10/55.
(4) الهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/28.

فِيهِ[1] وأَصْلُ الشَّهْوَةِ: نُزوعُ النَّفْسِ إلى ما تُريدُهُ[2]، والمَعْنى هُنا: اللَّذّاتُ المُحَرَّمَةُ كالزِّنا ونَحْوِهِ[3]، "واتّباع الشّهوات مُرْدٍ، وطاعتُها مُهلكةٌ، وفي الحديث: «حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النّار بالشّهوات»، حيث الجنّة لا تنال إلّا بقطع مفاوز المكاره، وأنّ النّار لا منجى منها إلّا بفطام النّفس عن الشّهوات[4]، والنّأي عن دواعيها في الخلوات والجلوات.

2) ﴿تَمِيلُواْ مَيْلًا﴾: مَالَ عَنِ الشَّيْءِ: عَدَلَ، وانْحَرَفَ[5]، يُقالُ مالَ يَميلُ مَيْلًا ومَيَلانًا، والمَيْلُ أَيْضًا الجَوْرُ والحَيْفُ، ومِنْهُ المَيْلُ في الحُكْمِ[6]، أَي: الجَوْرُ، وأَصْلُ كَلِمَةِ (مَيْلٍ) تَدُلُّ على انْحِرافٍ في الشَّيْءِ[7]؛ والمَعْنى هنا تَنْحَرِفوا عَنِ الدِّينِ وتَضِلُّوا، "وقال ابن السّكّيت: الأميلُ عند الرّواة: الّذي لا يثبت على ظهور الخيل، إنّما يميل عن السّرج في جانب، فإذا كان يثبت على الدّابة قيل: فارس، وإن لم يثبت، قيل: كفل، والجمع ميل، قال جرير:

لَمْ يَرْكَبُوا الْخَيْلَ إِلَّا بَعْدَمَا هَرِمُوا *** فَهُمْ ثِقَالٌ عَلَى أَكْتَافِهَا مِيلُ"[8]

3) ﴿ضَعِيفًا﴾: الضَّعْفُ: ضِدُّ القُوّةِ، ويَكونُ في البَدَنِ وَالرَّأْيِ، وأَصْلُ الضَّعْفِ يَدُلُّ على خِلَافِ الْقُوَّةِ، وضَعْفُ الإِنْسانِ لِكَثْرَةِ حاجاتِهِ التي يَسْتَغْني عَنْهَا المَلَأُ الأَعْلَى ومَعْنَى ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: أَي يَسْتَمِيلُه هَواهُ[9]، وقد خلق الله الإنسان ضعيفًا أمام غرائزه وميوله، فلا فكاك له منها، ولا منأى له عنها، فيناسبه من التّكاليف ما فيه يسرٌ وسعةٌ، وذلك هو ما يكلّف الله به عباده، فضلاً منه ورحمة، وتيسيرا عليهم ونعمة[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكّد الآية للمؤمنين أنّ اللّهَ يُريدُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ، ويَتَجاوَزَ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ، ويُريدُ الّذينَ يَسيرونَ خَلْفَ مَلَذّاتِهِمْ، أَنْ يبْعُدوا عَنْ طَريقِ الِاسْتِقامَةِ بُعدًا شَديدًا فَيكُونُوا

(1) ابن سيده، المحكم: (شهو).
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (شها).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/221.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/28.
(5) الجَوْهَريُّ، الصّحاحُ: (حرف)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (ميل).
(6) الخليل، العَينُ: (عول)، والرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (جنف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَيَلَ).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مَيَلَ).
(9) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، ومُرْتضى الزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف)
(10) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 113.

مِثْلهمْ، ثمّ يخاطبهم قائلا: يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ فِي أَحْكامِ الشَّرْعِ، فَلا يُكَلِّفُكُمْ ما لا تُطيقونَ؛ لِأَنَّهُ عالِمٌ بِضَعْفِ الإِنْسانِ في خَلْقِهِ، وعدم اتّزانه في خُلُقِهِ[1]، فراعى له تلك الخصوصيّة، وعامله بلطفه وإحسانه.

كُلَّما كَثُرَ دُعاة الشَّهوات جاء لطفُ اللَّطيفِ؛ وكُلَّما طفت الشِّدَّةُ جاء التَّخفيف

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ في: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾: تأكَّدَ مضمونُ الجملةِ بمجيءِ الجملةِ اسميَّةً، ولمّا وردَ الخبرُ جملةً فعليَّةً أفادَ تقويةَ الإسنادِ بتكرُّرِ المسندِ، مرةً بمجيئِهِ اسمًا ظاهرًا، وأخرى بمجيئِهِ ضميرًا مستترًا في ﴿يُرِيدُ﴾، فكأنَّ الإسنادَ تكرّرَ مرَّتينِ للمبالغةِ.

تَأْكِيدُ حُكْمِ الإِسْنادِ وتَقْوِيتُه، وبَيانُ خُصوصيَّةِ التَّوْبَةِ وأَهَمِّيَّتِها

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على أسلوبِ الجملةِ الاسميّةِ:

لمّا كانتِ التَّوبةُ لها خَصوصيَّةٌ وردَ الكلامُ على أسلوبِ الجملةِ الاسميّةِ، فخالفَ ما سبقَ في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ ولِحاقِهِ في قَوْلِهِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، وفي تَكْمِلَةِ الآيَةِ نَفْسِها ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ فَجَميعُها وردَ على أسلوبِ الجملةِ الفعليَّةِ، فخالفَ في التَّعبيرِ في قولِه ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لِمَا تفيدُهُ الجملةُ الاسميَّةُ مِنَ الإشعارِ بالحصرِ، فاللهُ وحدَهُ هو الذي يريدُ أنْ يتوبَ عليكم، ولِمَا تفيدُهُ مِنْ تقويةِ الحكمِ وتأكيدِهِ؛ لِأهميّةِ تقريرِ المعنى في نفوسِ المخاطبينَ، والغرضُ هو التَّحريضُ عَلى التَّوْبَةِ وَالإِقْلَاعِ عَنِ المَعاصي[2].

(1) الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويِّ: 1/175، والمحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ، ص: 105، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/21.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ في الخطاب بقولِه ﴿يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ووقولِه ﴿يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾:

التّوبةُ تشملُ كلَّ المسلمين

لمّا كانَ الخطابُ يقتضي توجيهَ الكلامِ إلى حاضرٍ، وهوَ لا يكونُ إلَّا شاهدًا معيَّنًا كانَ تركُهُ إلى غيرِ معيّنٍ؛ ليفيدَ العمومَ مِنْ إخراجِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ، وهوَ مِنْ قبيلِ وضعِ المضمَرِ موضعَ الظّاهرِ كذلكَ، فحُمِلَ هنا قوله ﴿عَلَيۡكُمۡۗ﴾ و﴿تَمِيلُواْ﴾ و(عَنكُم) على عمومِ المؤمنينَ؛ قصدًا إلى تعظيمِ أمرِ التَّوبةِ وتحصيلِها، وأنّها تشملهمْ جميعًا، فلا تختصُّ بمخاطَبٍ دونَ مخاطَبٍ، بلْ كلُّ مؤمنٍ له مدخلٌ في هذا الخطابِ، كما أنَّ في الخطابِ مِنَ المواجهةِ بالتّودُّدِ والتّحبُّبِ والتّكريمِ والاهتمامِ ما لايخفى، وَلِيُنَبِّهَ بهذا الخطابِ أَسْماعَهُمْ، فَتَهْتَزَّ نُفوسُهُمْ؛ لِلشُّعورِ بِعِظَمِ مَكانَتِهِمْ عند اللّه تعالى[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿يَتُوبَ﴾:

أفادَ مجيءُ الفعلين بصيغةِ المضارعِ استمرارَ إرادةِ اللّهِ لأنْ يتوبَ على المؤمنينَ المذنبينَ، واستمرارِ قبولِ توبتِه على المؤمنين

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

لمْ يأتِ المصدرُ بصيغةِ الصّريحِ، فلمْ يقلْ (يريدُ التّوبةَ عليكم)؛ لإفادةِ تطاولِ زمنِ إرادةِ التّوبةِ وامتدادِه؛ ليشملَ الحالَ والمستقبلَ الممتدَّ بقرينةِ السِّياقِ، ولتصويرِ حالةِ حبِّ اللّهِ لتوبةِ عبادِهِ المؤمنينَ، وأيضا لِبيانِ أنَّ الغرضَ هو تحصيلُ مطلقِ التّوبةِ من غيرِ تقييدٍ بوصفٍ، ترغيبًا في تحصيلِ أصلِ التّوبةِ والإسراعِ فيها.

مناسبة التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾:

عبّرَ بالاسمِ الموصولِ لفوائدَ هي:

أوّلاً: أفاد الاسم الموصول العموم ليشملَ كلَّ متَّبعٍ للشَّهوات من أهل الباطلِ وطلَّاب الفواحشِ وغير ذلك ممّا حرَّمه اللّه[2]

(1) الإسفراييني، الأَطْوَلُ: 1/295.

(2) ابن جرير جامع البيان، وابن عطية، الوجيز: 2/40.

ثانيًا: للتوسّلِ إلى الصِّلةِ التي تدلُّ على أنّ المؤمنينَ يعرفونَ الَّذينَ يتّبعونَ الشَّهواتِ لِمَا تُشعِرُ بهِ جملةُ الصِّلة مِنْ أنّها معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبينَ إلى مشارٍ إليهِ معلوم.

ثالثًا: كما أنَّ في ذِكْرِ الصِّلَةِ تَشْنِيعًا لِحالِ أَصحابِ الشَّهواتِ، وإيماءً إلى أنَّ اتّباعَ الشَّهواتِ موصِلٌ إلى العدولِ عنِ القصدِ والاستقامةِ[1]

بلاغةُ العدولِ عن الجملةِ الاسميَّةِ إلى الجملة الفعليَّةِ:

كَمالُ المُبايَنَةِ بَيْنَ إرادَةِ اللهِ وإرادَةِ مُتَّبعي الشَّهَواتِ

في العدولِ عن الجملةِ الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ فوائدُ هيَ:

أوّلاً: في الآيةِ الكريمةِ مُباينةٌ عجيبةٌ بينَ كمالِ منفعةِ ما أَرادهُ اللّهُ تعالى مِنْ رحمةٍ وتخفيفٍ، وكمالِ مضرَّةِ ما يريدُهُ الفجرةُ، فقُدّمَتْ إرادةُ اللهِ وغُيّرَ الأُسلوبُ إلى الجملةِ الاسميَّةِ توطئَةً لإظهارِ فسادِ متَّبعِي الشَّهواتِ، ودلالَةً على دوامِ الإرادةِ الإلهيَّةِ.

ثانيًا: بدأَ بصيغةِ الفعلِ في قولِهِ ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾ لِلْإشارَةِ إلى تجدّدِ حدوثِ إرادتِهم في كلِّ وقتٍ، ولِلْإيماءِ إلى كمالِ المُباينةِ بَينَ مَضمونَيِ الجملتَيْنِ[2].

ثالثًا: عَطْفُ ذِكرِ إرادةِ مُتّبعي الشَّهواتِ بَعدَ ذِكرِ إرادةِ اللّهِ على جِهةِ التَّقابلِ والتَّضادِّ المُتدرِّجِ الواقعِ في المَوقفِ، لِلتَّبصِرَةِ والعِظَةِ بِما تُنتجهُ المُقارنةُ مِنْ تَفاوتٍ بَينَ الإرادتَيْنِ؛ فَالمَظنونُ في هذهِ المُقابلَةِ أَنْ يَقولَ: (واللّهُ يُريدُ أَنْ تَسْتَقيموا) مَثَلًا أَوْ (أَنْ تُطيعوهُ)، فَإنَّ الاستقامةَ تُقابلُ المَيلَ، فلمّا قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ذَكَرَ ما هُوَ أَخَفُّ، وأشعرَ بأنَّ في التّوبةِ الاستقامةَ.

رابعًا: في ذِكْرِ إرادةِ اللّهِ في مُقابلِ ما يُريدُهُ الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ يَظْهَرُ كَمالُ رَحمةِ اللّهِ وحبِّهِ للمؤمنينَ.

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 2/70، والسّكاكي، مفتاح العلوم/182، والقونْويُّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 7/124، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/21.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/40، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/684.

مناسبةُ تأخيرِ المسندِ إليهِ في قولِه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾:

ليسَ أَصْحابُ الشَّهَواتِ وحدَهم الَّذينَ يُريدونَ ميلَ المسلِمينَ ميلًا عظيمًا

تَأخيرُ المسندِ إليهِ في الجملَةِ الثَّانيةِ مِنَ الآيَةِ يَدُلُّ على أَنَّ أَصحابَ الشَّهواتِ مِنَ الزُّناةِ والعُصاةِ[1]، لَيْسوا وحدَهُمُ الذينَ يُريدونَ لِلْمسلمينَ أَنْ يَميلوا مَيْلًا عَظيمًا، بَلْ هناكَ غيرُهُمْ مِمَّنْ يريدُ ذلكَ مِنَ المُنافِقينَ وأَهْلِ الكِتابِ لذا تَأَخَّرَ المُسْنَدُ هُنا، وخَصَّهم بالذِّكرِ هنا لِمناسبةِ المقامِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

عبّر بالاتّباع لِما فيه من معنى اقتفاءِ الشّهواتِ ولحاقِها وتطلّبِها أينما كانت، فهيَ أمامَهُ، وهو تابعٌ لها معَ موافقته عليها، ورغبتِه فيها[2]

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة في قولِه ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

تصويرُ انهماكِ أصحابِ الشّهواتِ فيها لِلمبالغةِ في التّحذيرِ منهمْ

لمّا كانَ الاتّباعُ عنْ أمرٍ مِنَ المتبوعِ، وكانَ هؤلاءِ يدورونَ معَ شهواتِ أنفسِهم مِنْ غيرِ تحاشٍ عنها، ويَلحقُونَها أَينما كانتْ، دلَّ على أنَّ انهماكَهمْ فيها بمثابةِ أنْ تكونَ الشّهوات هي التي أَمرتهم باتِّباعِها فامتثلوا أَمرَها واتَّبعوها، فهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ للمبالغةِ في التّحذيرِ منهمْ[3].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الفِعْلِ بِالمَصْدَرِ ووَصْفِهِ بِالْعِظَمِ في قولِه: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾:

بَيانُ شِدَّةِ حِرْصِ أَصْحابِ الشَّهَواتِ على إِضْلالِ النَّاسِ وعِظَمِ خَطَرِهِمْ عَلَيْهِمْ

فقد أَكَّدَ فعلَ المَيلِ بِالمَصدرِ على سبيلِ المبالغةِ، ولَمْ يكتفِ حتَّى وصفَهُ بِالعِظَمِ، على معنى غايةِ الميلِ عن الحقِّ ومُنتهاهُ، وذلكَ أَنَّ الميولَ قدْ تختلِفُ، فقدْ يَتركُ الإِنسانُ فِعلَ الخَيرِ لِعارضِ شُغلٍ أَوْ لِكسلٍ أَوْ لِفسقٍ يَستلذُّ بِهِ، أَوْ لِضَلالَةٍ بِأَنْ يَسبِقَ لَهُ سُوءُ اعتقادٍ،

(1) عَلى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَ اتِّباعَ الشَّهَواتِ هُنا بِالزِّنى ونِكاحِ المَحارِمِ: يُنْظَرُ: الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/61، وابْنُ عَطِيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 02/40.
(2) الزَّمَخْشري، أساس البلاغة: 1/89، والراغب، المفردات، ص: 162.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/15.

وَيتفاوَتُ رُتَبُ مُعالجةِ هذهِ الأَشياءِ، فبعضُهَا أَسهَلُ مِنْ بَعضٍ، فَوُصِفَ مَيلُ هَؤُلَاءِ بِالْعِظَمِ، إِذْ هو أَبعدُ المُيولِ مُعالجةً وَهو الكُفرُ[1].

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

في الآية تعريضٌ بالمُسْلِمينَ؛ لِتنبيههم إلى دَخائِلِ أَعدائِهِمْ، لِيَعلموا الْفَرقَ بَينَ مُرادِ اللهِ مِنَ المؤمنينَ، وَمُرادِ أَعوانِ الشَّياطينِ الذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهواتِ[2].

دَلالَةُ الِاسْتِئْنافِ والفَصْلِ في: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

استأنفَ في الكلامِ؛ لِبيانِ حُكمٍ دائمٍ مستمرٍّ؛ لِيكونَ حكمًا عامًّا كليًّا؛ لِبيانِ مَزيدِ أَلطافِهِ بهذهِ الأُمَّةِ وتفضُّلِهِ عليها؛ لأنَّها تتناولُ كلَّ ما خفَّفَ اللهُ تعالى عن عبادِهِ[3]، وكأنَّهُ أرجعَ التّخفيفَ إلى أمرينِ: أحدهما تخصيصُ هذهِ الأمّةِ بهِ؛ لِمَزيدِ العِنايَةِ بهم وتكريمًا لهم، والثاني لِكَوْنِ الضَّعْفِ العَامِّ في نَوْعِ الإِنْسانِ سَبَبًا مُقتضيًا لِلتَّخفيفِ.

بَيانُ ظُهورِ تمامِ النِّعَمِ الإِلَهيَّةِ عَلى هَذِهِ الأُمَّةِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ (عَنْ):

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِه ﴿عَنكُمْۚ﴾ المُجاوَزَةَ المَعْنَوِيَّةَ؛ لِلإشعارِ بأنَّ التّخفيفَ هو نوعٌ من المجاوزةِ؛ تَكْريمًا لِرسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وهَذا نظيرُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: 185][4].

التَّخفيفُ عن الأُمّةِ تَكْريمًا لِرسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ

حُسنُ التَّذييلِ في قَولِهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

في جملةِ التّذييلِ فوائدُ لغويّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

أوّلاً: أشعرتْ جملةُ التَّذييلِ بتعليلٍ آخرَ سوى إرادةِ اللهِ التّخفيفَ؛

الإسلامُ أليقُ الأديانِ بالإنسانِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ لِمَزيةِ التَّخفيفِ المُناسبِ فيه

(1) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603.

(2) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 03/15، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 3/92، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/21.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/41، والقونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 07/125.

(4) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603.

لخَصوصيَّة الأمّة المحمّديّة كما تقدَّمَ، فهي تَذْييلٌ مَسوقٌ لِتَقْرير ما قَبْلَهُ مِمّا خفّفه اللّه على هذهِ الأمّةِ وتعليلٌ له، ومنه الرُّخصةُ في نكاحِ الإماءِ.[1]

ثانيًا: فيها إشَارَةٌ وتَعْليلٌ لِمَا سَبَقَ في الآياتِ مِنْ قَبيلِ الالْتِفاتِ وَتَشابُهِ الأَطْرافِ[2] فَلِضَعْفِ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ أَنْعَمَ اللّه تعالى عَلَيْها بِإرادَةِ أَرْبَعَةِ أَشْياءَ، أَوَّلُها: التَّبْيينُ، وهُوَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهمْ صِراطَهُ المُستقيمَ، وثانيها: الهدايةُ بِأَنْ يَهديَهمْ إليهِ بالعِيانِ بعدَ البيانِ، وثالثُها: التَّوبةُ عليهِمْ، وهي أَنْ يَرجِعَ بِهمْ إلى حَضرتِهِ، ورابِعُهَا: التَّخفيفُ عَنهُمْ وهو إيصالهم إلى حضرته بالمعونةِ، وتَخفيف المؤُونَةِ[3].

ثالثًا: كما أَنَّ هذَا التَّذييلَ خرجَ مَخرجَ المثلِ المُستقِلِّ بالفائدةِ والذِّكرِ، فالإنسانُ ضَعيفٌ باعتبارِ أَصلِهِ وما يؤُولُ إِليهِ حالُهُ[4].

رابعًا: في هذا التَّذييلِ إظهارٌ لِمَزِيَّةِ هذا الدِّينِ وَأَنَّهُ أَليَقُ الأَديانِ بالنَّاسِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وَلِذلكَ فمَا مضى مِنَ الأَديانِ كانَ مُراعًى فيهِ حالٌ دونَ حَالٍ، ومِنْ هذا المعنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: 66][5].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادَة والمَشِيئَة:

المَشيئَةُ حُكْمٌ قَدَرِيٌّ في ما أَحَبَّهُ اللّه، وفيما لا يُحِبُّهُ فَهِيَ تَتَعَلَّقُ بالْقَضاءِ والقَدَرِ، فَمَشيئَتُهُ سُبْحَانَهُ مُتَعَلِّقةٌ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ الكَوْنيِّ، فَمَا شَاءَ اللّه كَانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البَقرة: 253]، وَقَوْلُهُ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: 27]، أَمَّا الإرادَةُ فَتَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: إرادَةٌ بِمَعْنى المَشيئَةِ فَتَتَعَلَّقُ بالْقَدَرِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: 125]، وقَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المَائِدَة: 1]، وَإرادَةٌ بِمَعْنى المَحَبَّةِ، وتَتَعَلَّقُ بالشَّرْعِ، كَقَوْلِهِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/685.
(2) وهُوَ ائْتِلافٌ مَعْنَويٌّ يُسَمَّى تَشَابُهَ الأَطْرافِ ويُطْلَقُ عَلَيْهِ مُرَاعاةُ النَّظيرِ أَيْضًا: وهُوَ أَنْ يَخْتِمَ الكَلامَ بِمَا يُنَاسِبُ ابْتِداءَهُ في المَعْنى، يُنْظَرُ: الإسفراييني، الأَطْوَلُ: 02/382.
(3) البروسوي، روحُ البَيانِ: 2/193.
(4) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/607.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/22.

تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: 185] وقَوْلُهُ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [النِّساء: 26] فَهَذِهِ بِمَعْنى المَحَبَّةِ، فَالمَشِيئَةُ قِسْمٌ واحِدٌ وهِيَ مَشِيئَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ؛ والإرادَةُ قِسْمانِ: شَرْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ بِمَعنى المَحَبَّةِ، وقَدَرِيَّةٌ كَونِيَّةٌ بِمَعْنى المَشِيئَةِ[1]، و"اللّه تعالى صاحب الإرادة والمشيئة المطلقة، وبيده الأمر كلّه، بعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ويفعل عادة ما فيه الخير والمصلحة للعباد"[2]، وقال الرّاغب: "الإرادة قد تكون بحسب القوّة التّسخيريّة، والفكريّة والحسيّة، ولذلك تستعمل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان، وفي العقلاء، والمشيئة لا تكون إلّا مع اختيار، ولذلك لا يقال إلّا للعالم والمتفكّر"[3].

الهوى والشَّهْوَة:

الْهَوَى مُخْتَصٌّ بِالْآرَاءِ وَالِاعْتِقَادَاتِ، مِثَالُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى﴾ [القَصَص: 50] وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المَائِدَة: 77] وأَمَّا الشَّهْوَةُ فمُخْتَصَّةٌ بِنَيْلِ اللَّذَّةِ، مُبَاحَةً كانَتْ كَقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آلُ عِمرَانَ: 14]؛ أَوْ مُحَرَّمَةً كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ [الأَعْرَاف: 81]، وقيلَ إنَّ الهوى هُوَ الشَّهْوَةُ المَذْمومَةُ إذا اسْتَتْبَعَتْها الفِكْرَةُ[4]، فَصَارَت الشَّهْوَةُ مِنْ نَتَائِجِ الْهَوَى وَهِيَ أَخَصُّ، وَالْهَوَى أَصْلٌ هُوَ أَعَمُّ[5]، فآدم ﷺ لم يكن معصومًا من تدبير نفسه بالخلود في الجنّة، فدخل عليه البلاء، من غلبة الهوى والشّهوة على العلم والعقل، وعلى البيان ونور القلب، وذلك لسابق القدر من اللّه تعالى، حتّى انتهى كما أثر عن الحارث المحاسبيّ فيما ذكره صاحب حلية الأولياء في الإشارة إلى ذلك المعنى، في رواية عطاء السّليمي، قال: (بلغنا أنّ الشّهوة، والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان)[6].

(1) ابْنُ القَيِّم، شِفَاءُ العَليلِ، ص: 48.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 2/1491.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152.
(4) صالِحُ بْن حميد وآخرون، نَضْرَةُ النَّعيم: 9/3753.
(5) الماوَرْديُّ، أَدَبُ الدُّنْيا والدِّين، ص: 33.
(6) التُستري، تفسير التّستريّ، ص: 29، وكذلك: أبو نعيم، حلية الأولياء: 6/224.

الميَل والزَّيْغ:

الزَّيْغُ اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكْروهٍ، ولا يَكُونُ إلَّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقَالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغَ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ البَاطِلِ؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آلُ عِمْران: 8] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلُ عمران: 7]، أَمَّا المَيْلُ: فَهُوَ عَامٌّ في المَحْبوبِ والمَكْروه[1]، فَالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغِ، وذكر القرطبيّ لفظًا جامعًا لهما، وهو العوج، قال: "والعوج: الميل والزّيغ (بكسر العين)، في الدّين والقول والعمل، وما خرج عن طريق الاستواء"[2].

الضَّعْف والوَهن والإسْتِكانَة:

الضَّعْف ضِدُّ الْقُوَّة؛ والوهن هُوَ أَن يفعل الْإِنْسَانُ فِعْلَ الضَّعِيف، يُقال وَهُوَ في الْأَمر يَهِنُ وَهْنًا واهنٌ، إذا أَخذ فِيهِ أَخذ الضَّعِيف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آلُ عمران: 139] أَي لَا تَفعلُوا أَفعَال الضُّعَفَاء وأَنْتم أقوياء على مَا تَطْلُبونَهُ بتذليل اللّه إيَّاه لكم[3]، والوَهَنُ أَيْضًا الضَّعْفُ في الْعَمَلِ وَعلى النُّهوض في الْأَمر، وَيكون كَذَلِكَ في العَظْم وَنَحْوِه، يُقالُ وَهَنَ الْعَظْمُ وَالبدن[4]؛ ومثّل القرآن للوهن ببيت العنكبوت، وعلله النّسفيّ بقوله: " لما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً للّه لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك تجعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذّباب وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً، لم يستنكر "[5]، وَأَمَّا الاستكانة فهيَ إظْهارُ الضَّعْف والخُضوع عن ذُلٍّ: قَالَ اللّه تَعَالَى ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ [آلُ عمران: 146]، أَي لم يَضْعُفوا بِنُقْصَان الْقُوَّة وَلَا اسْتَكَانُوا بِإِظْهَار الضَّعْف عِنْدَ المُقاوَمَة[6].

(1) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 269.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/154، وكذلك ذكره الشّوكانّي، فتح القدير: 1/420.
(3) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 115، والمُصطفوي، التَّحْقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 13/214.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (وهن)، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 04/118.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/74.
(6) النَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/210.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»